تقييدات في إعجاز القرآن

بقلم

أ.د. محمد بن عبدالرحمن أبوسيف الجهني

أستاذ الدراسات العليا بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده لاشريك له، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ به سبحانه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأصلى على النبي محمد وأسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإني كنت بتوفيق من الله قد قيدت تقييدات في إعجاز القرآن، في معناه وفي دلالته وفي أنواعه.

فجمعتها في هذه المطبوعة وقدمت عليها تمهيداً في بيان الأولى من التسميات للمعجزة.

وترجمت لها بـــ: "تقييدات في إعجاز القرآن" وأتقدم بها للقراء رجاء تعدية نفعٍ مظنون إليهم، محتسباً عند الله الأجر.

والله ولي التوفيق لاشريك له، وله الحمد أولاً وآخراً لاشريك له.

أ.د.محمد عبدالرحمن أبو سيف الجهني

وكانت كتابته في شعبان ١٤١٨هـــ

تمهيد

إن الأولى في تسمية ما أجراه الله لأنبيائه من الخوارق أن تسمى: آيات، أو بينات أو براهين، وذلك أجدر بها من تسميتها: معجزات، لوجوه:

الأول: أن لفظ "المعجزة" لم يرد في الكتاب ولا في السنة(١)، وإنما فيهما تسمية الخارق الذي يجرى لنبي من الأنبياء آية أو بينة أو برهاناً، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا

---

(١) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية ٤/٧٠،٦٧، والمواهب اللدينة ١/٣٤٨.

رُسُلًا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ الرعد: ٣٨، وقال نبي الله صالح عليه السلام لقومه فيما حكاه الله عنه في كتابه: ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً ﴾ الأعراف: ٧٣ وقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ الحديد: ٢٥ وقال سبحانه لرسوله موسى عليه السلام: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ القصص: ٣٢.

الثاني: أن لفظ "الآية" و"البينة" و"البرهان" في تسمية خوارق الأنبياء أدل على مقصودها من تسميتها معجزة، ولذلك اختصت بها هذه الألفاظ فلا تقع على غيرها، إذ حدها حد الدليل والبرهان والمراد بها إقامة الدليل على صدق النبي، ولم تقم لمجرد الإعجاز. أما لفظ

المعجزة فإنه وإن كان من بعض صفات آيات الأنبياء وشرط فيها وهو من لوازمها إلا أن العجز عن معارضتها غير مقصود لذاته وليس هو بمراد الله من إيتائه الآيات لأنبيائه بل المراد كونها دليلاً على ثبوت النبوة وبرهاناً لها وآية عليها(١)، كما سيأتي إيضاحه عند الكلام على معنى الإعجاز المقصود في آيات الأنبياء ودلالاته.

الثالث: أن عرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره جرى على تسميتها آيات.(٢)

وقد جرى عرف من صنف في معجزات النبي ﷺ على تسمية مصنفاتهم فيها باسم: "دلائل النبوة" ولم يسموها معجزات، ومن ذلك:

---

(١) انظر: النبوات ٢٨٧ و٢٨٩ و٣١٠.

(٢) قاله ابن تيمية. انظر: الفتاوى ٣١١/١١.

- دلائل النبوة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ.(١)
- دلائل النبوة لابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١هـ.(٢)
- دلائل النبوة لإبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥هـ.(٣)
- دلائل النبوة لأبي بكر الفريابي المتوفى سنة ٣٠١هـ.(٤)

---

(١) ذكره ابن النديم في الفهرست ١١٦ وصاحب كشف الظنون ١/٧٦٠.

(٢) ذكره الذهبي في السير ١٣/٤٠٢.

٣ذكره ابن أبي يعلي في الطبقات ١/٨٦.

٤ وهو مطبوع.

- دلائل النبوة لإبراهيم بن حماد المتوفى سنة ٣٢٣هـ.(١)
- دلائل النبوة للنقاش المتوفى سنة ٣٥١هـ.(٢)
- دلائل النبوة للطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ.(٣)
- دلائل النبوة للقفال الكبير المتوفى سنة ٣٦٥هـ.(٤)
- دلائل النبوة لابن شاهين المتوفى سنة ٣٨٥هـ.(٥)
- دلائل النبوة للخركوشي المتوفى سنة ٤٠٧هـ.(١)

---

١ ذكره ابن النديم في الفهرست ٢٨٢ وصاحب ايضاح المكنون ٤٧٧/١.

٢ ذكره الذهبي في السير ٥٧٤/١٥.

٣ ذكره الذهبي في السير ١٢٨/١٦.

٤ ذكره الذهبي في السير ٢٨٤/١٦.

٥ذكره في الرسالة المستطرفة ص٧٨.

- دلائل النبوة لأبي نعيم المتوفى سنة ٤٣٠هـ.(٢)
- دلائل النبوة للمستغفري المتوفى في سنة ٤٣٢هـ.(٣)
- دلائل النبوة لأبي ذر الهروي -أحد رواة صحيح البخاري- المتوفى سنة ٤٣٥هـ.(٤)
- دلائل النبوة للبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ.(٥)
- دلائل النبوة لابن دلهاث المتوفى سنة ٤٧٨هـ.(٦)

---

١ ذكره الذهبي في السير ١٧/٢٥٦.

٢ وهو مطبوع.

٣ ذكره الذهبي في السير ١٧/ ٥٦٤، وانظر: كشف الظنون ١/٧٦٠.

٤ ذكره في السير ١٧/٥٦٠.

٥ وهو مطبوع.

٦ ذكره في السير ١٨/٥٦٨ وسماه صاحب إيضاح المكنون ١/١٠٤: "أعلام النبوة".

- دلائل النبوة لقوام السنة التميمي المتوفى سنة ٥٣٥هـ.(١)

- دلائل النبوة لأبي بكر محمد بن حسن المعري المتوفى سنة ٨٥١هـ.(٢)

وربما سموا تصانيفهم في معجزات النبي ﷺ بـ"أعلام النبوة" ومنه:

- أعلام النبوة لأبي داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥هـ.(٣)

---

[١] وهو مطبوع.

[٢] ذكره في كشف الظنون ١/٧٦٠.

[٣] ذكره في الرسالة المستطرفة ٧٩ وسماه في كشف الظنون ١/٧٦٠: "دلائل النبوة" وقال: "ذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب".

- أعلام النبوة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ.(١)
- أعلام النبوة لابن أبي الدنيا.(٢)
- أعلام النبوة لابن فطيس، المتوفى سنة ٤٠٢هـ.(٣)
- أعلام النبوة للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ.(٤)
- أعلام النبوة للبكري المتوفى سنة ٤٧٨هـ.(٥)

---

١ ذكره الذهبي في السير ٣٩٧/١٣ وسماه صاحب الفهرست ص١١٦: "دلائل النبوة" وكذا في كشف الظنون ٧٦٠/١.

٢ ذكره الذهبي في السير ٤٠١/١٣ وأفرده عن دلائل النبوة ولعله هو.

٣ ذكره في السير ٢١٢/١٧ وسماه في تذكرة الحفاظ ١٠٦١/٢: "دلائل الرسالة" وسماه الداودي في طبقات المفسرين ٢٩٢/١: "أعلام النبوة ودلالات الرسالة"، وكذا في هدية العارفين ٥١٥/١، وفي الرسالة المستطرفة ٧٩: "دلائل الرسالة".

٤ وهو مطبوع.

٥ ذكره في السير ٣٥/١٩، وانظر: ايضاح المكنون ١٠٤/١.

- أعلام النبوة لابن ظفر المتوفى سنة ٥٦٥هـ.(١)

وإطلاق لفظ "المعجزة" و"الإعجاز" في ذكر آيات الأنبياء كان معروفاً في أواخر القرن الثالث وكان ربما يقرن بلفظ الدلائل ولفظ الأعلام، ومن هذا تسمية أبي عوانة الاسفرائيني المتوفى سنة ٣١٦هـ كتاباً له في دلائل النبوة باسم: "دلائل الإعجاز"(٢)، وذكر أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤هـ مما اختلف فيه المتكلمون اختلافهم في ظهور الأعلام المعجزات على غير الأنبياء جائز أم لا.(٣)

---

[١] ذكره في كشف الظنون ١/١٢٦.

[٢] ذكره في الرسالة المستطرفة ص٧٩ معطوفاً على كتب دلائل النبوة.

[٣] انظر: مقالات الإسلاميين ص٤٣٨.

وكان لفظ المعجزة يطلق على كل خارق سواء ظهر لنبي أو لولي غير نبي، لا فرق في ذلك عندهم ويدل عليه قول الأشعري رحمه الله في كتابه مقالات الإسلاميين: "واختلفوا هل يجوز أن تظهر الأعلام على غير الأنبياء، فقال قائلون: لا تجوز أن تظهر الأعلام المعجزات على غير الأنبياء" إلى أن قال: "وقال قائلون: جائز أن تظهر المعجزات على الصالحين الذين لا يدعون النبوة".(١)

ولكن استقر الاصطلاح عند المتأخرين على قصر اسم "المعجزة" على خارق النبي، وسموا خارق الولي "كرامة".(٢)

---

١ انظر: مقالات الإسلاميين ص٤٣٨.

٢ انظر: الفتاوى ٣١١/١١.

تقييدات في إعجاز القرآن

التقييد الأول: معنى الإعجاز:

المعجزة والإعجاز مشتقان من الفعل: عجز، ومعنى عجز: ضعف، يقال: عَجِز عن الشيء وعَجَز –بفتح الجيم وكسرها– عجْزاً ومَعْجِزَةً ومَعْجَزَةً ومَعْجِزاً ومَعْجَزَاً فهو عاجز أي ضعيف.

قال ابن الأعرابي: لا يقال: عجز الرجل إلا إذا عظم عجزه.(١)

قال الراغب: "العَجْزُ أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عَجُزِ الأمر أي مؤخَّرِه"، قال: "وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة".(٢) قال الأزهري: "معنى الإعجاز: الفوت

---

١ انظر: الصحاح ٣/٨٨٤، و مقاييس اللغة ٤/٢٣٢.

٢ المفردات ٣٢٢.

والسبق" قال: "وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه".[1]

ومنه سميت آيات الأنبياء معجزات لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثلها، خارجة عن مقدورهم، وإن طلبوا الإتيان بمثلها وسعوا إليه فلن يدركوه.

ووجه الإعجاز في آيات الأنبياء أنها لا تدخل تحت قدرة العباد مطلقاً، ولا تكون إلا للأنبياء، خاصة بهم، وليست هي من جنس معجزات السحرة والكهنة إذ معجزات هؤلاء ليست خارقة لعادات بني آدم، بل كل ضرب منها معتاد لطائفة من الناس مقدور عليه عندهم وليست خارجة عن مألوفهم، وخرقها إنما هو لعادة من لم

---

[1] تهذيب اللغة ١/٣٤٠.

يعتد عليها ولا علم له بها ولم يألفها ، وليست هي خارجة عن سنن الله التي أجراها في كونه، بل فيها استخدام سنن الله الجارية في تغيير ما جرت به العادة الظاهرة، فمثلاً:

جرت سنة الله في كونه أن الزئبق يضطرب ويميد إذا أصابته حرارة، فإذا لُطخت به عصيٌ وحبال ثم ألقيت هذه العصي والحبال في أرض أصابتها حرارة الشمس في وقت ضحىً وهو وقت ارتفاع الشمس واشتداد حرارتها ومع حرارة الأرض أصابت حرارة الشمس العصي والحبال أيضاً، فإنها ستميد وتضطرب وتهتز حتى يخيل لمن يراها أنها تسعى، كما فعل السحرة

بين يدي موسى عليه السلام في الموعد الذي جمع الناس له.⁽¹⁾

ففي هذا استخدام سنة كونية أجراها الله وهي: اضطراب الزئبق مع الحرارة، في خرق عادة مألوفة عند الناس وهي: كون العصي والحبال لا تضطرب ولا تسعى.

أما معجزات الأنبياء فليست مقدورة لأحد من الخلق مطلقاً، لأن فيها خرقاً للسنن التي أجراها الله في كونه، ولا يخرق سنة جارية إلا من أجراها سبحانه وتعالى.

فمثلاً: أجرى الله في خلقه أن الجمادات كالحبال والعصي لا حياة فيها ذاتها ولا تنقلب عن أصلها إلى

---

(1) انظر تفسير البغوي ٣/٢٢٤، وتفسير القرطبي ١١/٢٢٢، وتفسير ابن كثير ٣/١٥٩، وتفسير أبي السعود ٦/٢٧، وروح المعاني ١٦/٢٢٧.

حيوانات حية تسعى، ومحال على الخلق أن يفعلوا ذلك، ولكن الله أخلف سنته الجارية في ذلك لنبيه موسى عليه السلام ، فلما ألقى عصاه قلبها الله حية حقيقة تسعى، ولذلك آمن السحرة وخروا سجداً لأنهم تيقنوا أن ما أجراه الله لموسى عليه السلام لم يكن من قبيل استخدام سنة كونية في مخالفة مألوف، بل هو إخلاف سنة جارية بنقيضها حقيقة على نحو لا يفعله ولا يقدر عليه إلا من خلق وأجرى سبحانه.(١)

---

١ ولكن الذي ينبغي التنبه له، أن الله لا يخلف سنة أجراها إلا لسبب وحكمة، وقد اقتضت حكمته إجراء آيات الأنبياء التي فيها خرق سنة أجراها لسبب النبوة، ولذلك فإن آيات الأنبياء لا تكون إلا مع النبوة وهي مختصة بالأنبياء وبرسالاتهم ولا تقع إلا لتأييد الأنبياء وتثبيت الرسالات سواء جرت للأنبياء أنفسهم أو لأتباعهم .

وعلى هذا فهذه سنة الله في كونه أن يجرى هذه الآيات لهذه المقتضيات، فتكون سنة الله عز وجل وعادته في النبوة ورسالاتها أن يميزها بخصائص تمتاز بها عن غيرها ويعلم بها أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص. فعند التحقيق والتدبر لا يكون في آيات الأنبياء خرقاً للسنن الكونية الجارية مطلقاً بل إنها سنن أجراها الله بإزاء سننه الجارية في كونه، قال ابن تيمية –رحمه الله– في النبوات ص٣٣٠-٣٣١: "الرب تعالى في الحقيقه لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ الفتح: ٢٣ وقال: ﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ فاطر: ٤٣، وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين ، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به، ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها".إلى أن قال –رحمه الله تعالى–: "ولم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقال: إنه خرق عادته ونقضها، بل عادته وسنته المطردة أن

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "إن ما يأتى به الساحر والكاهن وأهل الطبائع والصناعات والحيل، وكل من ليس من أتباع الأنبياء لايكون إلا من مقدور الإنس والجن، فما يقدر عليه الإنس من ذلك هو وأنواعه، والحيل فيه كثير،

تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة والإخبار بها، لا مع التكذيب بها أو الشك فيها، كما أن سنته وعادته أن محبته ورضاه وثوابه لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه، وأن سنته وعادته أن يجعل العاقبة للمتقين وسنته وعادته أن ينصر رسله والذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣ ﴾ الفتح، وكل ما يظن أنه خرقه من العادات فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات، فعادته وسنته لاتتبدل إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل". ولعله يمكن القول: إن آيات الأنبياء هي سنن خاصة جارية على خلاف السنن العامة لحكمة اقتضت ذلك.

وما يقدر عليه الجن هو من جنس مقدور الإنس وإنما يختلفون في الطريق، فإن الساحر قد يقدر على أن يقتل إنساناً بالسحر، أو يمرضه، أو يفسد عقله أو حسه وحركته وكلامه بحيث لا يجامع أولا يمشى أو لا يتكلم ونحو ذلك، وهذا كله مما يقدر الإنس على مثله لكن بطرق أخرى" إلى أن قال -رحمه الله-: "وكذلك الجن كثيراً ما يأتون الناس بما يأخذونه من أموال الناس من طعام وشراب ونفقة وماء وغير ذلك وهو من جنس ما يسرقه الإنسي ويأتي به إلى الإنسي، لكن الجن تأتي بالطعام والشراب في مكان العدم، ولهذا لم يكن مثل هذا آية لنبي، وإنما كان النبي ﷺ يضع يده في الماء فينبع الماء من بين أصابعه وهذا لا يقدر عليه لا إنس ولا جن، وكذلك الطعام القليل يصير كثيراً، وهذا لا يقدر عليه لا الجن ولا

الإنس، ولم يأت النبي ﷺ قط بطعام من الغيب ولا شراب".[1] وقال -رحمه الله-: "إن آيات الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم ليست مما تكون لغيرهم، فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء، وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء؛ ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم، وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح ومن ركب معه في السفينة، فهذا لم يكن في العالم نظيره. وكذلك إهلاك قوم عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد مع كثرتهم وقوتهم وعظم عماراتهم التي لم يخلق مثلها في

---

[1] النبوات ١٦٨-١٦٩.

البلاد، ثم أهلكوا بريح صرصرٍ عاتية مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ونجا هود ومن اتبعه، فهذا لا يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قوم صالح أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين أهلكوا كلهم بصيحة واحدة، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قوم لوط أصحاب مدائن متعددة رفعت إلى السماء ثم قلبت بهم واتبعوا بحجارة من السماء تتبع شاذهم ونجا لوط وأهله إلا امرأته أصابها ما أصابهم، فهذا لا يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قوم فرعون وموسى جمعان عظيمان ينفرق لهم البحر كل فرق كالطود العظيم، فيسلك هؤلاء

ويخرجوا سالمين، فإذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء، فهذا لم يوجد نظيره في العالم".(١)

إلى أن قال -رحمه الله-: "والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته، فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لايوجد له نظير في العالم".(٢)

---

(١) النبوات ١٥٩-١٦٠.

(٢) النبوات ١٦٤.

والحاصل أن جنس خوارق الأنبياء جنس خاص ليس من جنس سائر الخوارق المعلومة عند الناس المقدورة لبعضهم.

وهذا هو وجه الإعجاز فيها: عدم دخولها تحت قدرة العباد وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليها، وهي فعله سبحانه الذي لا يحاط به قدرة ولا علماً ، وكيف يشبه فعلُ المخلوقين فعلَ الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له.

والأمر كما قال ابن تيمية -رحمه الله-: "دلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية".(١)

---

(١) الجواب الصحيح ٤/٧٩.

وعلى هذا جاء إعجاز القرآن، فإن سر إعجاز القرآن وحقيقته أنه كلام الله لا يقدر أحد من البشر أن يقول مثله وكيف يشبه كلامُ المخلوقين كلامَ الله.

وثمة مسألة، وهي: إذا كان إعجاز القرآن في كونه خارجاً عن مقدور البشر أصلاً لكونه كلام الخالق ولا يرد كلام مخلوق على مثاله تعالى الله، فما وجه التحدي به؟! فإن ما تستحيل قدرة العباد عليه أعظم من أن يُتحدوا فيه، وظهور بينته وتمكن برهانه مغنٍ عن التحدي به.

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: أن القرآن نزل في أصل نزوله بينة ودلالة على النبوة ولم يتزل للتحدي، وإنما وقع التحدي به مع

ورود الطعن فيه والشك منه والشغب عليه بالجدل والمماحكة، وعلى هذا تدل الآيات الوارد فيها التحدي.

فآية سورة البقرة قال الله فيها: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٢٣)﴾. ورد التحدي بالقرآن فيها بعد ذكر ريبهم منه. وآية سورة هود قال الله فيها: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٣)﴾ هود: ١٣ ورد التحدي بالقرآن فيها بعد ذكر طعنهم فيه. وآية سورة يونس قال الله فيها: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨)﴾ ورد التحدي بالقرآن فيها بعد ذكر طعنهم فيه. وفي آية سورة القصص قال الله فيها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ

مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ (٤٨) قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٩) ﴾ ورد التحدي بالقرآن فيها بعد ذكر جدالهم وطعنهم فيه. وآية سورة الطور قال الله فيها: ﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ (٣٤) ﴾ ورد التحدي بالقرآن فيها بعد ذكر طعنهم فيه. وآية سورة الإسراء التي قال الله فيها: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا (٨٨) ﴾ ورد التحدي بالقرآن فيها في سياق ذكر جدلهم ومماحكتهم وشغبهم على القرآن باقتراح الآيات على النبي ﷺ فالآيات بعدها في بيان ذلك، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا (٨٩) وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا

تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ فذكْر اقتراحهم الآيات بعد آية التحدي واردٌ على ذات المعنى الذي في قوله سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي أن آية القرآن كافية والتحدي به مغن في قيام الحجة وانقطاع المعارض عن قرنه بآيات أخر.

الثاني: أن التحدي بالقرآن ورد من باب مجاراة الخصم لإلزامه بالحجة وإتمامها عليه وقطع المعذرة وسد الذرائع من جميع وجوهها دونه ، وقد صح عن النبي ﷺ

في وصف ربنا تبارك وتعالى أنه قال: "لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين".(١) ولذلك تمم الله الحجة عليهم وأكملها بعد تحديهم بالقرآن فجاء عقب آيات التحدي بيان انقطاع المكذبين وتمام الحجة عليهم وأن تكذيبهم بعد التحدي إنما هو جحد ومعانده، وأنه ليس لهم بعد التحدي إلا الإذعان أو استحقاق العقوبة.

ففي سورة البقرة قال سبحانه في الآية بعد آية التحدي: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فأخبر ﷻ أنه لا سبيل لهم بعد

---

١ متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة، البخاري مع الفتح ٣٩٩/١٣ ح٧٤١٦، ومسلم ١١٣٦/٢ ح١٤٩٩

التحدي وعجزهم إلا أن يتقوا النار بالتسليم لله ولكتابه ورسوله أو فإنها قد أعدت لهم.

وفي سورة هود قال سبحانه في الآية بعد آية التحدي: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ فأخبر سبحانه أنهم إن لم يأتوا بمعارض بعد التحدي فقد انتفى المعارض واستقر الدليل على أن لا إله إلا هو سبحانه وأن القرآن من عنده متضمن أمره وعلمه ولم يبق بعد ذلك إلا الإذعان والتسليم ، فهل أنتم مسلمون؟.

وفي سورة يونس قال سبحانه في الآية بعد آية التحدي: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ فأخبر سبحانه أن تكذيبهم بعد التحدي وعجزهم هو من جنس

تكذيب من قبلهم، تكذيب ظلم وعناد وعلو وكفر، فلينظروا إلى عاقبة أولئك وليحذروها أن تصيبهم كما أصابتهم.

وفي سورة القصص قال سبحانه في الآية بعد آية التحدي: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ فأخبر سبحانه أن عدم إيمانهم بعد التحدي وعجزهم إنما هو إتباع للهوى لا دليل لهم ولا حجة يتبعونها سوى العناد والظلم.

وفي سورة الطور قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فبين سبحانه أن كفرهم وجحدهم هو الحامل لهم على الطعن في القرآن وادعاء أن النبي ﷺ افتراه من عند نفسه ، ثم أتبع هذا التقرير بدليله وهو تحديهم أن

يأتوا بمثله إن كانوا صادقين في دعواهم فقال سبحانه: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وفي سورة الإسراء قال سبحانه في الآية بعد آية التحدي: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ فأخبر أن كفر الناس ليس عن قصور في البنية وعجز في الدليل وضعف في الحجة ولكنه جحود للحق ورد للحجة ومكابرة.

وهذا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في فرعون وقومه لما جاءهم موسى عليه السلام بالآيات المعجزات: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤ هذا بعد قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ النمل: ١٣ أي: أن الآيات المعجزات التي جاء بها موسى ظاهرة وأرادوا معارضتها فغلبوا فجحدوا بها في ظاهر الأمر واستيقنت

أنفسهم العلم بأنها حق من عند الله ولكنهم أخذتهم المكابرة ظلماً وعلواً.

وقد أحكم الله حلقة إعجاز كتابه وأتمها من كل وجه فجعل إنزاله على رجل تُحكم أحواله وصفاته حلقة الإعجاز وتمنع خدشه بأي شيء يرتاب به المبطلون، فأنزله على رجل أمي ما كان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾العنكبوت: ٤٨ - ٤٩ فهذا كتاب عجيب فيه تفاصيل أخبار الأولين وأحوال الأرض والسماء يأتي هذا النبي الذي عرفه قومه عرفوا صدقه وأمانته وعرفوا مدخله ومخرجه وسائر أحواله وهو لا يكتب بيده خطاً ولا يقرأ خطاً مكتوباً وهم يعرفون ذلك

فقد لبث فيهم عمراً من قبله قال الله : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يونس: ١٦ فهذا من أظهر البينات على إعجازه، ولو كان ﷺ قارئاً أو كاتباً لكان ثمة وجه للريب لا التكذيب؛ فكيف وهو ليس كذلك فلا وجه لمجرد الريب فضلاً عن التكذيب فلا يكون التكذيب والحال هذه إلا جحد ظالم: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

ولمعرفة المشركين بأمية النبي ﷺ سلكوا طريقاً آخر في الجدل فزعموا أنه ﷺ تلقى القرآن عن معلم علمه إياه، وزعموا أن الذي علمه غلام رومي كان قيناً عندهم ، وهذه دعوى عبثية إنما ألجأهم إليها العجز فإن هذا الغلام لم يكن يحسن العربية كان أعجمي اللسان بالكاد يعرف

ما يطلب منه ، فهي دعوى خارجة عن وقار العقل لا يدعيها من له أدنى مسكة من عقل ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾النحل: ١٠٣.(١)

هذا، ولو كان النبيﷺ غير أمي وكان قارئاً كاتباً لما خدش ذلك في إعجاز القرآن ، ومن وقعت في نفسه ريبة منه رده تدبر القرآن وتحقيق العلم به عن ريبه فكيف والحال ما ذكر من شأنه ﷺ.

فانعقدت أزمة الإعجاز من أطرافها و لم يبق لريب موضع بوجه من الوجوه إلا وجه العناد واللعب.

---

١ انظر سبب نزولها في تفسير ابن جرير ١٤/١١٩، وأسباب الترول للواحدي ١٦٢، والسيرة النبوية ١/٤٠٥.

وقد جمع الله عَزَّوَجَلَّ في إقامة الحجة على المشركين بإعجاز القرآن بين دلالتي: القرآن ذاته وسيرة النبي المترل عليه القرآن ﷺ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾المؤمنون: ٧٠ - ٧١ ، أي أن طعنهم في شخصه ﷺ إنما كان لكراهتهم الحق الذي معه ، فهو طعن هوىً لا طعن حجة ، أرادوا به مداحضة الحجة القائمة في الحق الذي خوطبوا به وبسيرته ﷺ فيهم.

التقييد الثاني: دلالة إعجاز القرآن

إن المقصود من تأييد الأنبياء بالمعجزات هو إقامة الدليل على صدق الرسول وصحة الرسالة وإسقاط شبه المبطلين وتمحكات المعاندين ، لتحقيق فائدة الرسالة ومقصودها وهو اجتماع الناس على الرسول والتدين لله بالرسالة. ولذلك سماها الله بينات وبراهين.

فدلالة المعجزات هي صدق الأنبياء وثبوت نبواتهم في حقيقة الأمر وأصله وليس مدلولها مجرد إشاعة دعوى النبوة والإخبار عنها.

ولذلك جعل الله ﷻ آيات أنبيائه من خصائص قدرته خارجة عن مقدورات البشر، لأنه لما كانت النبوة منه سبحانه والرسول رسوله مرسلاً من عنده وبأمره ومبلغاً عنه وواسطة بينه وبين خلقه اقتضى المقام أن تكون العلامة الدالة على صحة الرسالة وصدق الرسول منه

سبحانه من خصائص قدرته جلّ وعلا ، فهو المرسل وهو معطى العلامة، وإذا كانت العلامة التي مع الرسول من خصائص المرسِل ولا تكون إلا منه ولا تعرف إلا له دل هذا على صدق الرسول وصحة الرسالة.

وعلى هذا ورد إعجاز القرآن فهو دليل على صدق رسالة محمد ﷺ وثبوتها له ﷺ وصحة نسبتها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لأنها كلام الله الذي يخصه فلا يشبهه كلام، فعجز الخلق على الإتيان بمثله وثبوت كونه كلام الله نفسه سبحانه علامة بينة للنبي ﷺ على صدق دعواه ﷺ أنه مرسل من الله وأن ما يبلغه هو مطلوب الله من خلقه.

وهاهنا أمور تتعلق بدلالة إعجاز القرآن على ثبوت النبوة:

الأول: أن العلم بدلالة إعجاز القرآن على ثبوت النبوة علم ضروري والأدلة النظرية توافقه[1]، ولذلك فإن القرآن دليل على النبوة وإن لم يقع التحدي به، فليس من شرط دلالته أن يتحدى به، ولذلك لما سمع النجاشي ما تلاه عليه جعفر بن أبي طالب ﵁ من القرآن، قال: "إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحده"[2] فهذا من النجاشي علم ضروري.

---

[1] انظر: النبوات ص٣٣٨.

[2] هذا وارد في حديث جعفر بن أبي طالب الطويل، وهو حديث حسن أخرجه أحمد١/٢٠٢،وابن اسحاق -السيرة النبوية-١/٣٤٧- ٣٥١، وأبو نعيم في الحلية ١/١١٥-١١٦، وفي الدلائل ١/٢٤٦-٢٥٠، والبيهقي في الدلائل ٢/٣٠١-٣٠١، وابن عسكر في تاريخه، انظر: البدايه والنهاية لابن كثير ٣/٧١-٧٤ وصحح الحديث: أحمد شاكر في ترتيبه المسند ٣/١٨٠، وصاحب الفتح الرباني ٢٠/٢٢٩.

ومن هذا القبيل قول المغيرة بن شعبة لقريش لما سمع شيئاً من القرآن: والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، و والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته". (١)

ومنه قول أنيس أخي أبي ذر: "لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء

---

١ أخرجه الحاكم ٢/٥٠٦ وقال: "هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخاري و لم يخرجاه" ووافقه الذهبي، وعن طريقه أخرجه البيهقي في الدلائل ٢/١٩٨، وأخرجه ابن جرير في التفسير١٦/٩٨، والواحدي في أسباب الترول ٢٥٠.

الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.(١)

الثاني: أن دلالة إعجاز القرآن على ثبوت نبوة محمد ﷺ غير مختصة بزمنه ﷺ ولا بقومه العرب، ولذلك قال ﷺ: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".(٢)

---

(١) ورد هذا في سياق حديث إسلام أبي ذر، أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩١٧، ح٢٤٧١.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري مع الفتح ٩/٣، ح٤٩٨١، ومسلم ١/١٣٤، ح١٥٢.

ولذلك لما كانت رسالته ﷺ عامة في الخلق أجمعين وهي مراد الله منهم إلى يوم القيامة لا يقبل ديناً غير ولا يُعبد إلا بشرعة محمد إلى قيام الساعة، لما كان ذلك كذلك كان القرآن باقياً محفوظاً إلى يوم القيامة لا يدخله تحريف ولا تبديل لأنه دليل ثبوت النبوة وصحة الرسالة وإعجازه فيها ناطق إلى يوم القيامة بصحة الرسالة: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر: ٩ وهو كلام الله والخلق عن بكرة أبيهم واستقصاء أماكنهم وتوالى أزمنتهم لا قدرة لهم على الإتيان بمثل سورة منه(١)، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ

---

(١) وهذا من خصائص القرآن فإنه هو آية نبوة محمد ﷺ وهو رسالته وشرعته، فاجتمع فيه الإعجاز والمنهج، النبوة ودليلها، وكانت معجزات الأنبياء قبله ﷺ منفكة عن المنهج مستقلة بنفسها.

ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾الإسراء: ٨٨.

الثالث: أن القرآن بإعجازه ليس دالاً على صدق النبي ﷺ وحده، بل وعلى صدق من دعا إلى ملته وأخبر عن نبوته من جميع الخلق في كل زمن. وهذا الأمر فرع عن سابقه.

التقييد الثالث: وجوه إعجاز القرآن

القرآن كلامٌ، والكلام ألفاظ ومعان، وإلى هذا تنتهي وجوه إعجاز القرآن.

فإعجازه: على الجملة إعجاز لفظ، وإعجاز معنى، وينظم إليهما وجه آخر مستقل من الإعجاز، وهو تأثيره

في النفوس وصنيعه في القلوب، قال الخطابي: "في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال أخرى وما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حضها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب".(١)

---

(١) بيان إعجاز القرآن – ضمن كتاب [ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني-] ص٧٠-٧١.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾الحشر: ٢١، وقال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾الزمر: ٢٣

فهذه الثلاثة جملة وجوه الإعجاز، ثم تتعدد أنواعها ، فهي أنواع متعددة بتعدد جمل الألفاظ وتراكيبها، وبتعدد إنشاءات المعاني وأخبارها، وتعدد آثاره في النفوس من رغبة ورهبة ومهابة وسكينة ونحو ذلك.

قال الخطابي: "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً

وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه(١) له في

---

[١] يجب التنبه إلى أن التنزيه فرع الإثبات فلا تنزيه إلا بإثباتٍ يسبقه به يُعلم ما يُنزه عنه.

صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم ، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبأً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه وإنباءً عن وجوب ما أمر به ونهى عنه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قُوى البشر ، ولا تبلغه

قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله".[1]

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: "بل هو -[أي القرآن]- آية بينة معجزة من وجوه متعددة، من جهة اللفظ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة مابين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى:

---

[1] بيان إعجاز القرآن ٢٧- ٢٨.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ الكهف: ٥٤، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ الروم: ٥٨، وقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الزمر: ٢٧ - ٢٨، وكل ماذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا يناقض ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له".(١)

وقد عدد أهل العلم وجوه إعجاز القرآن حتى أوصلها السيوطي في جمعه في كتاب: "معترك الأقران في إعجاز القرآن" إلى خمسة وثلاثين وجهاً.

---

(١) الجواب الصحيح ٤/٧٤-٧٥.

وأرادأ أقوال الناس وأبعدها عن الحق قول من قال: إن إعجاز القرآن في صرف الناس عن معارضته مع قدرتهم على ذلك وقيام الداعي إليه، وهذا هو القول بالصرفة، وقد اشتهر به النظام أحد رؤوس المعتزلة.

و هو باطل من وجوه:

الأول: أن القرآن تحدى الخصوم أن يأتوا بمثله، واستثار حميتهم، وكرر التحدي والتقريع به، ودعا إلى الاستعانة بكل من يمكن الاستعانة به للإتيان بمثله. وهذا التحدي إنما هو دعوة إلى المعارضة وإغراء بها واستثارة إلى محاولة ممارستها.

الثاني: أنهم لم يجدوا أنفسهم مصروفين عن المعارضة بل قد حاولوا وجاءوا بما زعموه معارضاً فافتضحوا وتمكن إعجاز القرآن، قال ابن تيمية –رحمه

الله-: "وقد انتدب غير واحد لمعارضته، لكن جاء بكلام فضح به نفسه، وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله، مثل قرآن مسليمة الكذاب، كقوله (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تقدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء وذنبك في الطين)".(١)

الثالث: أنه لو كان الإعجاز في الصرفة لكانت هي المعجزة لا القرآن نفسه، ولكان تحداهم بأن ينصرفوا إلى معارضته لا بالمعارضة نفسها.

قال الباقلاني: "ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها

---

(١) الجواب الصحيح ٤/٧٦-٧٧.

الصرفة لم يكن الكلام معجزاً وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه". (١)

وحاصل القول في وجوه إعجاز القرآن أنها في الجملة ثلاثة:

الأول: إعجازه في ألفاظه وأسلوبه، وهو الإعجاز اللغوي.

الثاني: إعجازه في المعاني التي دلت عليها الألفاظ، وهو الإعجاز في علومه التي تضمنها، وهو يشمل: نوعان عامان:

الإعجاز التشريعي: وهو إعجازه في أوامره ونواهيه وسائر أحكامه وأقضيته.

---

[١] إعجاز القرآن ٥٤.

الإعجاز العلمي: وهو إعجازه في أخباره بالمغيبات الماضية والمستقبلة وبما تضمنه من أخبار عن أسرار الكون والآيات في الآفاق وفي أنفس بني آدم.

الثالث: إعجازه في آثاره في نفوس سامعيه، وهو الإعجاز المعنوي.

وهذه الوجوه ترجع إلى نوع واحد هو سر الإعجاز ومعقده ، وهو كون القرآن كلام الله سبحانه منه بدأ، ومهما تعددت وجوه الإعجاز فإن سر الإعجاز الذي ترجع إليه هو كون الكلام كلام الله الذي لا يشبه كلام مخلوق ولا يشبهه كلام المخلوقين، تعالى الله وتقدس عن المشابهة، ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ (٣) وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ (٤)﴾ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

هذا نوعها الذي ترجع إليه ، فالإعجاز في نوع الكلام ، حيث تصرفت وجوهه فهي أفراد هذا النوع.

الفهـــرس

المقدمة..............................

تمهيد...............................

تقييدات في إعجاز القرآن.............

التقييد الأول: معنى الإعجاز............

التقييد الثاني: دلالة إعجاز القرآن.........

التقييد الثالث: أنواع إعجاز القرآن........